



ليس أصعبَ من أن تكون مسكوناً بالمدن، تخرج منها فتلحقك بظلها وشمسها، بأرضها وسمائها، بصيفها وشتائها، تلتحقك بكل تفاصيلها، وكأنها مَن سكنتك وليس أنت!.

تلحقك وإن جمعت حولك أهلك وعشيرتك وذويك ل تستوطنوا أرضاً غيرها، لأنكم عندما تجتمعون في المساء – ليؤنس بعضكم بعضاً – لن يكون حديثكم إلا عن تلك المدينة.

في ليلة شبه صيفية صعدت إلى السطح لأجلب شيئاً ما، ولا أدرى ما الذي أنساني ذلك الشيء لأجلس في زاوية قريبة من السماء، منذ زمن بعيد لم أنظر إلى السماء ولم أبحث عن القمر، ربما لأننا نحن – السوريين – لم يعد يعنيانا من رقعة السماء إلا إحصاء عدد الطائرات التي ستقصفنا.

في حلب الشرقية كان صديقي يحسدني على سطحنا الذي يفترش السماء ويتدمر من بيته الكبريتي الذي لا يطل عليه قمر ولا تشع عبر نوافذه نجوم، ولا أدرى لماذا خطر على بالي عنوان رواية لم أقرأها لشهلا العجيلي "سماء قريبة من بيتنا"، ترى هل هناك سماء قريبة وسماء بعيدة؟ هل هناك نسيم صحيح ونسيم عليل؟ وهل تختلف نجوم مدينة عن أخرى؟ ولماذا فضلت ميسون بنت بحدل خيمتها التي تشبه خيام اللاجئين على قصر معاوية، ولماذا أغرق أمرؤ القيس معلقة بذكر الأماكن.

عندما أراد نيرون أن يعيد بناء روما أضرم النار بأحياءها القديمة وأخذ يراقب من برجه المرتفع مشهد اشتعال المدينة بسكنها وسط صرخ الضحايا، بينما كان يعزف على آلة موسيقية ويدندن أشعار هوميروس عن حريق طروادة.. واتجهت أصابع الاتهام إليه في افتعال الحرائق وتعالت من حوله الأصوات المطالبة بالقصاص، فبحث عن بد يقول إنها التي اقترفت، ولم يكن أمامه سوى المسيحية الحديثة في روما، حيث لاحق المسيحيين واضطهدتهم وسفك دماءهم وقدمهم للوحوش الكاسرة وأحرقهم بالنيران أمام أهل روما، وعاش المسيحيون في سراديب تحت الأرض وفي الكهوف هرباً من نيرون، وما زالت مساكنهم وكنائسهم إلى الآن يزورها السياح.

نحن اليوم لا يعنينا من روما سوى التاريخ الذي يعيده نفسه في حلب، عاصمة يمحاضن وحاضرة بني حمدان، تلك المدينة التي نزل المتنبي ساحتها فأنسد: "كلما رحب بنا الروض قلنا..... حلب قصتنا وأنت السبيل" ، وأطل أبو فراس من أسوار قلعتها فقال: "كأنما الأرض والبلدان موحشة وربعها دونهن العامر الأنس "

حلب اليوم هي روما البارحة غير أن نيرونها أوكل مهمة إحراقها لأصحاب الدماء الباردة والعمائم السوداء بعد أن استعانت عليه، ولم تكن له في ذلك غاية نبيلة أو عذر سوى جعلها مستعمرة روسية أو مقاطعة إيرانية، فدمى قلعتها وجامعها وأشعل أسواقها وهدم أبوابها وحرق سكانها، وجعل أرضهم ملتقي جيوش العالم وسمائهم معرض طائرات، ولاحقهم في الكهوف والملاجئ بالصواريخ الارتجاجية، وأحال ليلهم صبحاً أبيض بقنابل النابالم فقط لأنهم إرهابيون .. وأما أطفالهم فإرهابيون بالفطرة !!

درّب حلب لم يعد "كلو شجر زيتون" وإنما بات مزروعاً بالألغام، مرصوداً بالصواريخ، محاطاً بالمدافع، وسماؤها هجرتها البالبل واستوطنته الطائرات، ويتربيص أمام أبوابها ذئاب العالم بأسره. أما كل حلبي فيها فهو إما شهيد أو فقيد أو جريح أو ثكاء.

أبواب حلب التسعة وقلعتها العتيقة وخمسة ملايين حلبي شكلوا معالم هذه المدينة تشرد نصفهم في الأصقاع، أما نصفهم الآخر فقد انشطر بين شطري المدينة وغلقت عليه أبوابها التسعة. حلب هي المدينة التي لا تنام سابقاً، مدينة الظلام حالياً، موطن الأدباء والشعراء قبلًا، مرقد الشهداء توأ، "أضحت خلاء وأضحي أهلها احتملوا..... أخنى عليها الذي أخنى على بد"، لم تعد أم المحاشي والكبب بعد أن حاصرها الجوع، أما طريق الحرير الذي يمر بمعاملها فقد أصبح رسمياً دارساً بعد أن تعرضت معاملها للنهب والحرق والدمار. إنها حلب الثكاء، حلب الشهداء، و الرائحون إليها سرقوا العنبر والتفاح، في الحقيقة لا ألم ميسون على اختيارها ولا امرأقيس على مطلع معلقتها، ولو كانت لي معلقة لما كانت أبياتها إلا شوارع حلب وأبوابها، ووددت لو كانت ليالي الأنس في حلب تعود لأسهر ألف ليلة وليلة أرقب فيها سماءً قريبة من قلعتها.

نور سورية

المصادر: